حياة

للقصصي الفرنسي جي دي موباسان

بقلم الأستاذ لبيب السعيد

« جان » ابنة نبيل نورمندى ثرى تزوجت عن حب من « الكونت دى لامار » ؛ غير أن حسها المفرط الرهافة لم يلبث أن أشعرها عثرة النصيب وضآلة الأمل فى زوج أنانى فظ ؛ ومن ثم فهى تسوق حنوها كله إلى ولدها « بول »

وكأنما خلقت « جان » المسكينة للشقاء فهذا الابن العزيز « بوليه » كما تدعوه ، وقد بلغ مبلغ الرجال ، لا يألوها عذابا أليما ، فهو لا يكتب إليها من باريس حيث يعيش مع عشيقته إلا ليطلب مبالغ كبيرة من المال وإذ أشفت « جان » على الإفلاس فقد باعت كرها « لو بوبل » قصرها المنيف القريب من البحر ، حيث أمضت كل أيامها الذواهب . وها هى ذى بسبيلها إلى سكنى الريف فى بيت أكثر تواضعا ، وها هو ذا القروى ابن خادمتها « روزالى » قادم لينقل أمتعة البيت

* * *

إن « جان » لا تعرف إلى الآن ماذا تأخذ من الأمتعة وماذا تدع ، فبيتها الجديد بالغ الصغر ، ولهذا فأمر النقل يستغرق تفكيرها ... يحمل إليها مشغلة كارثة فى حياتها الحزينة الخالية من الأمل

تجولت « جان » من حجرة إلى حجرة تنشد قطع الأثاث التى تستثير الأسى من الأحداث . هذه القطع هى شطر من حياتنا بل هى بعض كياننا . لقد عرفناها منذ روق الشبيبة ؛ وقد ارتبطت فى أيام من تاريخنا بذكرياتنا البهيجة أو الحزينة . هى من خلطائنا الصامتين فى الساعات العذاب وفى الساعات الحالكة الإهاب . هذه القطع التى تدللها « جان » قدمت واعتراها البلى : تخرق نسيجها ، وتمزقت بطائنها ، وتهلهلت مشابكها ، وامحت ألوانها

كانت « جان » تتخير القطع التى تريد اصطحابها واحدة واحدة ، وكان التردد

يسيطر عليها ، وكانت مضطربة اضطراب المقبل على اتخاذ قرار حاسم ، فهي تراجع رأيها في كل لحظة ، مفاضلة مثلا بين مزايا كرسيين أو مكتب ذهب رواؤه وبين مزايا نضيد المشغل عبرت عليه سنون . وكانت تفتح الأدراج تلتمس ما يذكرها وقائع مضت أسبابها ، ثم تنثنى إلى نفسها قائلة : « نعم ، سآخذ هذا » ، وعندئذ ينقل هذا الشئ إلى حجرة المائدة

إنها جسد راغبة في ألا تدع شيئا من أثاث مخدعها : سريرها .. الأبسطة التى تكسو الجدران .. الساعة .. وكل شئ .

ومن حجرة الاستقبال جمت « جان » بعض المقاعد التى أحبت رسومها منذ صباها الباكر ، هى رسوم تمثل قصص الثعلب واللقلاق ، والثعلب والغراب ، والصرصور والنملة ، ومالك الحزين ...

وذات صباح ، بينما « جان » تطوف بأركان هذا السكن الذى لن تلبث أيامها فيه أن تؤذن بوداع صعدت إلى المخزن ، وهناك امتلكها الروع : هذى أكداس من الأشياء من كل جنس ، بعضها محطوم وبعضها محتفظ بجدته لولا غبرة تكسوه ، وبعضها لا يدرى أحد فيم جئ به إلى هذه الحجرة . لعله لم يعد يسر أحدا أو لعله استبدل به ...

وشهدت « جان » أشتاتا من دمى الزينة الصغيرة التى جمعتها بها قديما آصرة المعرفة ، ومع ذلك فإنها لما اختفت فجأة لم تفكر « جان » فى اختفائها ولا فيما كانت تؤديه . هذه الأسقاط التى طوى النسيان مصاحبه على ذكرها خمسة عشر عاما ، والتى كانت « جان » تراها كل يوم ولا تلحظ أنها تراها ، تظهر اليوم بغتة فى المخزن إلى جوار ... لما فتوقظ فى قلب « جان » ذكريات الأماكن التى تلقت هذه الأشياء المرة الأولى ...

وفجأة ، أخذت هذه الأشياء أهمية شهود منسيين أو أخلاء عادوا بعدما ظن ألا تلاقى ، وأضحى لهذه الأشياء الأثر الذى يكون لأناس اصطفاهم المرء زمانا طويلا ، ثم ضربت الليالى بينه وبينهم ، ثم على حين غفلة وعلى غير توقع عادوا يتحدثون مسترسلين فى الحديث كاشفين عما يملأ جوانحهم من ود غير منهم

مضت « جان » تنقل النظر من شئ إلى شئ وفى القلب أوجاع ، وكانت تناجى نفسها : « صه ! إنه أنا التى كسرت هذا الفنجان الصينى ذات مساء قبل زواجى بأيام قليلة » ، « آه .. هذا مصباح أمى الصغير ، وهذى هى العصا التى كسرها أبى الشاب عندما أراد فتح باب الحديقة

الذى شقق المطر أخشابه »

وثمة أشياء كثيرة لم تكن « جان » عرفتها ولا حفظت لها ذكرى ، أشياء تماورتها عن أجدادها الأدنين أو الأبعدين ، وأشياء علاها التراب نبذت هنالك فى زمن غير زمانها ، وكأنها شجية لما تلقى من هجران ، أشياء لا يدرى أحد تاريخها ولا المغامرات التى صاحبتها ، ولم ير أحد هؤلاء الذين اختاروها واشتروها وملكوها وأحبوها ، ولم يعرف أحد الأيدى التى استعملتها فى ألفة والعيون التى طالما ارتادتها واستطابتها

لمست « جان » الكراسى ، ثم أعادتها ، فتركت سيقان الكراسى أثناء تحريكها خطوطا . إن « جان » تحت ضوء النهار الباهت المنبعث من مربعات الزجاج المركبة فى السقف تبحث عما إذا كانت هذه الأشياء تنشر ذكريات مطوية

وأقبلت « جان » على أشياء عتيقة تفحصها رجاة أن تجد لديها ذكريات ، فمست حوضا نحاسيا ومدفئة منزوعة القاع تعتقد أن لها بها معرفة سالفة ، وكومة من المواعين التى لم تعد تستعمل . وفى آخر الأمر ، كانت « جان » قد جمعت قدرا من الأشياء التى ترغب فى اصطحابها ، فلما نزلت من المخزن أمرت « روزالى » بإحضارها ، وأبت الخادم ساخطة إحضار هذه « الأوساخ » ، ولكن « جان » التى لم تكن لها غالبا أية إرادة أصرت هذه المرة على رأيها ، وأوجبت الطاعة على خادمتها

وفى أحد الأصباح ، حضر الفلاح الصغير بعربته لنقل الدفعة الأولى من الأثاث ، وصحبته « روزالى » لتهيمن على النقل وتضع كل شئ موضعه . أما « جان » التى بقيت وحيدة ، فقد جعلت تنقل الخطى فى أرجاء القصر ، وقد تسلطت عليها نوبة فظيعة من اليأس . وفى حرارة الحب المشبوب بين جوانحها كانت تقبل كل ما تعجز عن استصحابه : قبلت الطيور البيضاء فى السجاجيد المزينة لجدران حجرة الاستقبال ... قبلت المصابيح القديمة ... قبلت كل ما صادفها ... وكانت فى سيرها من حجرة إلى حجرة كالذى خولط فى عقله ، وكانت عيناها غارقتين فى الدمع

وأخيرا ، توجهت تلقاء البحر لتقول له : « أستودعك الله »

كان ذلك فى أدبار سبتمبر ، والسماء القاتمة تحكى ثقلا مطبقا على الدنيا ، والأمواج المولة الضاربة إلى الصفرة تمتد على مدى البصر ، و « جان » قائمة على الشاطئ الصخرى تدير فى رأسها أفكاراً محزنة

وجن الليل على « جان » فآبت إلى

قصرها وقد برحت بها الآلام أكثر مما نملت بها أى أحزان وجيعة

وحان يوم الرحيل …

وفصلت المربة ، ثم وقفت بعد ساعتين على جانب الطريق الفسيحة تجاه بيت صغير مبنى بالآجر ويتوسط بستانا زرعت فيه الكمثرى بغير نظام ، وأقيمت فى أركانه تعاريش من الشجيرات والزروع المتسلقة ، وبينها أحواض مربعة مزروعة بالخضر ، تشقها مسالك ضيقة تحفها أشجار الفاكهة ، ويطيف بالدار وما حولها سياج عال بينه وبين المزرعة المجاورة حقل . وهنالك على بعد مئة متر دكان حداد ، وعلى بعد لا يقل عن كيل تقوم المساكن . فأما المنظر المجاور فمنظر سهل زاحف فى أرض « جو » تناثرت عليه الضياع وقد لفتها أربعة صفوف مزدوجة من أشجار التفاح

وإذ بلغت « جان » البيت أرادت لتستريح ، ولكن « روزالى » أبت عليها ذلك مخافة أن تسترسل فى أحلامها

وكان فى « جودرفيل » نجار ، وها قد أقبل لتنظيم الأثاث ، وشرع يعمل غير منتظر ورود المربة الأخيرة التى يجب الا تتأخر

كان الأمر مهما ويقتضى التروية والتدبير

وبعد ساعة ، ظهرت المربة عند السور ولم يكن مناص من تفريغها تحت المطر

ولما سجا الليل ، كانت الدار مضطربة النظام تماما ، فقطع الأثاث التى تعلوها ملقاة كيفما اتفق . أما « جان » التى أصابها الإعياء ، فلم تأو إلى مضجعها حتى غشيها النعاس

وفى الأيام التالية ، كانت « جان » مثقلة بالشواغل والمشاغل ، فلم يكن لديها وقت تحن فيه إلى ولدها المحبب ، هذا إلى أن تجميلها بيتها الجديد كان يشعرها ببعض السعادة ويطامن من شجاها ، وكان الأمل فى أوبة ابنها الغائب يراوحها ويغاديها فى غير انقطاع . ولقد بسطت « جان » السجاد فى حجرة الطعام التى اتخذت منها حجرة استقبال أيضا . أما الغرفتان الأخريان فى الشقة الأولى فقد نسقت إحداها بعناية . وسيطرت على « جان » فى ذات صدرها فكرة أن تسمى هذه الشقة « شقة بوليه » ، وقد احتفظت لنفسها بالغرفة الثانية ، وخصت « روزالى » بغرفة أخرى فى جوار المخزن

كانت الدار الجديدة شائقة بعد إذ نظمت بعناية ، وقد وجدت فيها « جان » الراحة فى الأيام الأولى ولو أنها كانت تحس شيئا ينقصها ، شيئا مبهما لم تعرفه ولم تتبينه

وذات ضحى ، جاء كاتب المحامى « فيكام » يحمل إليها ثلاثة آلاف وستمائة فرنك ثمن الأثاث الذى خلفته فى قصر « لو بوبل » والذى قدر قيمته أحد المتخصصين . وما إن تسلمت المبلغ حتى تنفست تنفس الفرحة ، وما إن تركها الرجل حتى أسرعت فوضعت قبعتها منطلقة إلى « جودرفيل » لتبعث إلى ولدها بهذا المبلغ غير المرتقب . بيد أنها وهى تحث الخطى فى الطريق الكبير تقابل « روزالى » قادمة من السوق . ومع أن الخادم لم تستيقن الأمر فقد خامرها الشك . ولما أفضت إليها بالحقيقة ، وكانت « جان » لا تحجب عنها سرا ، وضعت سلتها على الأرض ليمكنها التعبير عن غضبها فى يسر وكما تشاء ، وصاحت الخادم وقبضتا يدها فى خصرها ، ثم أخذت بذراع « جان » حاملة السلة بيسراها ، وانكفأت بسيدتها إلى الدار والغضب لما يسكت عنها ، حتى إذا دخلتا الدار وأصرت الخادم على أخذ المبلغ أعطته « جان » إياها محتفظة بستمائة فرنك . وأدركت « روزالى » التى راودها الشك أن للمبلغ بقية ، واضطرت « جان » إلى تسليم المبلغ عن آخره . على أن « روزالى » أشارت بإرسال ستمائة الفرنك إلى « بوليه » الذى ورد منه على أمه بعد أيام

كتاب يقول فيه شاكرا : « لقد أسديت إلى فضلا كبيرا يا أمى العزيزة ، فقد كنا فى بؤس بئيس »

ومع هذا ، فإن « جان » لم تطمئن إلى « باتفيل » ولم تألفها قط . ويا طالما بدا لها أنها لن تستروح النسيم كما كانت تفعل ، وأنها بالقياس إلى ذى قبل تمانى وحدة أحر وتسقى من هجران أمر

واعتادت « جان » أن تخرج كل يوم للتروض حتى تبلغ ضيعة « فرنيه » ثم تعود ، ولكنها لا تعود إلا لتنهض ثانية وقد تملكتها رغبة مستجدة فى الخروج كأنما نسيت الذهاب إلى حيث تحب أن تذهب

كان هذا الشعور يعاودها مصبحة وممسية ، وكانت لا تدرك سببا تحسه من نقص عجيب ، ولكنها فى إحدى الأماسى وهى تهم بالجلوس إلى مائدة العشاء ندت عنها عفوا عبارة كشفت سر الاضطراب الذى يعتلج فى دخيلتها ، قالت : « كم تهفو نفسى إلى رؤية البحر ! »

إذن هو البحر . . . هو الشئ الذى يعوزها ، إذن هو هذا الجار القديم منذ خمس وعشرين سنة ؛ هو البحر بهوائه الملح ، بغضباته ، بأصواته المزمجرة ، بنسماته القوية ؛ هو البحر الذى كانت ترنو إليه

مبهورة من دارها القديمة (لوبوبل) .. هو البحر الذى كانت تستشى عبيره فى الليل إذا يغشى ، وفى النهار إذا تجلى ، والذى كانت تحسه قريبا منها ، والذى أنزلته منزلة الحبيب كأنه إنسان مثلؤه الحياة ماق ذلك ريب

***

ومضت حياة « جان » وئيا . مضت حزينة وعلى وتيرة واحدة . والسيدة فى سكنها الجديد تنتظر أوبة « بوليه » قرة عينيها ، ولكنها لا ترى من « بوليه » إلا طلبات النقود

وألقى إليها يوما كتاب منه يسألها فيه أن تأذن له بالزواج من عشيقته . وهنالك قررت (جان) والهم يثقلها أن تستقل القطار شاخصة إلى باريس

***

وانطلقت السفارة الثانية إيذاناً بتحرك القطار ، فانسابت العربات فى رفق أول الأمر ، ثم فى سرعة أشد فيما بعد ، ثم فى سرعة مزعجة أخيرا . وكان فى المقصورة التى تبوأ فيها « جان » مقعدها رجلان اشتمل عليهما النسوم ، وقد أسندا رأسيهما إلى ركنين فى المكان

وكانت جان ترسل نظرها فى الغيطان والشجر والمساكن والقرى وهى مذعورة من تلك السرعة ، شاعرة أنها مأخوذة إلى حياة جديدة ، بل محمولة إلى عالم جديد لم تبله فى شبابها الهادئ ولاق عيشها الرتيب

وعندما بلغ القطار باريس كان المساء قد أقبل ، وسار أحد الحمالين بحقيبة « جان » ، وسارت هى فى أثره وجيلة القلب متعثرة الخطى قليلة الحيلة ، يعييها اختراق الجماهير المائجة ، وكانت من خلف الحمال تغذ السير كأنما تهرول مخافة أن يعزب عن ناظرها

حتى إذا بلغت إدارة الفندق ، بادرت تقدم نفسها قائلة : « قدمت إليكم بتوصية من السيد روسيل »؟ ولكن مديرة الفندق ، وهى سيدة ضخمة جافية ، سألت وهى جالسة إلى مكتبها : « ومن هو السيد روسيل ؟ » ومضت (جان) تقول وهى مستغربة : « إنه موثق العقود بجو درفيل ، وهو متعود النزول عندكم . » فأجابت السيدة الضخمة : « ربما ! ولكنى أجهله . أتريدين غرفة ؟ »

— نعم ياسيدتى

وأخذ النادل أمتعتها ، وصعد السلم قدامها

كانت (جان) تحس انقباضاً موغلا فى قلبها . وحين جلست إلى منضدة صغيرة دعت إليها بحساء وجناح دجاجة ، فإنها منذ الفجر لم تكن طعمت شيئا . وأكلت فى ضوء شمعة . أكلت وهى تجد الشجن فى قلبها ،

وكانت تهيج بها ذكريات كثيرة . إنها تذكر مرورها بالمدينة نفسها وهي عائدة من رحلة زواجها . . . نعم ، وقد بدت لها بومشذ فى باريس بالذات الشواهد الأولى لطباع (جوليان) زوجها ؛ ولكنها آنئذ كانت تلبس برد الصبا ؛ ولكنها آنئذ كانت عامرة بالثقة وافرة بالحياة . فأما اليوم فهى تحس أنقاض عمرها تتداعى ، وهى تحس فى نفسها اضطرابا وفزعا ، وتحس فى قواها وهنا ، وتحس قلقا لا تعرف مأتاه

ونفضت يدها من العناء ، وجلست إلى النافذة ، وأطلت على الطريق المكتظ بالخلائق ، وكان يشوقها أن تخرج ولكنها لم تكن لتجرؤ على هذا ، فقد كانت تعتقد أنها سوف تضل طريقها لا محالة . ولذلك أطفأت النور ، وأسلمت جنبها إلى المضجع ؛ بيد أنها لم تنم . نفى عنها الكرى ضجيج الشارع ، والإحساس بالمجهول فى المدينة الكبيرة ، واللغوب الذى نالها من الرحلة . ومرت الساعات ، وعشعشت الأصوات رويدا رويدا ؛ ولكن « جان » لا تجد إلى النوم سبيلا ، فيثير ذلك من أعصابها . لقد ألفت فى الريف الهدوء الشامل والنوم العميق اللذين يخلو إليهما هناك الإنسان والحيوان والنبات ، ولكنها الآن تحس من حولها حركة غامضة ، وتتناهى إليها أصوات غير مبينة كأنها تنسل من جدران الفندق زحفا ، وفى بعض الحالات ينادى إليها صوت أرضية تصر أو باب يقفل أو جرس يدق

ولم يكد النعاس يدب فى مفاصل (جان) حوالى الساعة الثانية من الصباح حتى رنت بغتة فى حجرة مجاورة صرخة من إحدى السيدات ، فاستوت (جان) جالسة فى سريرها . ولقد خالت بعدها أنها تسمع ضحكات رجل . وكلما اقترب النهار جعل التفكير فى (بول) يأخذ عليها أقطار فكرها ، حتى إذا تنفس الصبح إرتدت ملابسها

كان (بول) يقطن فى شارع (سوفاج) بالمدينة ، وأرادت (جان) أن يكون سعيها إلى هناك سيرا على القدم ، أخذاً بتوجيهات (روزالى) الاقتصادية ، وكان الجو صحوا ، ولكن الهواء البارد كان يقرص الجسد ، وكان الناس على الأفاريز مهطعين ، وكانت (جان) تجد السير ماوسمها ذلك فى شارع ، وكان عليها فى نهاية الطريق أن تنحرف عن يمين ثم تنحرف ثانية عن شمال ، حتى إذا بلغت ميدانا كان عليها أن تعاود السؤال عن الطريق الذى تنهجه ، ولكنها لم تهتد إلى البيان ، فاسترشدت خبازا أدلى إليها بمعلومات

تخالف مالديها . . واستأنفت السير وفق توجيهه فعميت عليها الطرق ، وتجولت وفق إرشادات جديدة فانتهى بها هذا إلى أن ضلت سبيلها تماما

ومضت كالتي ألم بها طائف من جنون تمشي على غير هدى . ولما طالعها نهر السين كادت تدعو حوذيا ، ولكنها التزمت رصيف النهر . وبعد نحو ساعة أدركت شارع سوفاج ، وهو أشبه بحارة مظلمة ، ووقفت حيال أحد الأبواب ، وقد نال منها التأثر مبلغا لم يسعها معه إلا أن تقف لاتريم هنا ، في هذا المنزل كان « بوليه » . .

ومشت في جسدها رعشة هزت ركبتيها ويديها . . . وأخيراً دخلت ، وسلكت ممرا ، ورأت غرفة البواب ، فسألته وهي تمد إليه يدها بقطعة نقود : أيمكن أن تهتدي إلى « السيد بول » لتبلغه أن سيدة عجوزا هي صديقة والدته تنتظره هنا ؟ فأجاب البواب : إنه لم يعد يسكن هنا ياسيدتي

وأخذتها رجفة عنيفة ، فقالت متمتمة « آه ! وأين يسكن الآن ؟ أين ؟ »

— لست أدري

وشعرت « جان » بدوار ، كما لو كانت ستسقط إلى الأرض ، ومكثت بعض الوقت عاجزة عن النطق ، وأخيرا وبعد جهد جهيد استردت حواسها ، وقالت بصوت خفيض : ومنذ متى رحل ؟

وأعطاها الرجل معلوماته في سخاء وقال : « إسمعي يا سيدتي ، لقد رحلا ذات مساء من نحو خمسة عشر يوما ، رحلا ولم يؤوبا . ولقد كانا متدينين للحي كله ، فكان طبيعيا كما لا يغيب عنك ألا يتركا عنوانهما »

كانت « جان » ترى أنوارا ... ترى لهبا خافتا ، تحسبه عينها طلقات منبعثة من بندقية ، ولكن فكرة عنيدة ملأت منها الجوانح فمنحتها القدرة على الوقوف ، وأفاضت عليها سكينة ظاهرة ، وأمنت روعها شيئا ما ، ذلك أنها كانت تريد أن تعرف أين « بوليه » وكيف تبحث عن « بوليه »

— أهكذا لم يقل أبدا أين ذهب ؟

— ألبتة ، ولقد هربا حتى لا يؤديا ديونهما

— ولكن لا مندوحة له عن إرسال من يتسلم بريده

— لم تعد ترد إليه رسائل ، ولو وردت إليه لأعطيتها إياه ، على أنه لم يكن يتلقى في العام بطوله أكثر من عشر رسائل . وقد سلمتها قبل رحيلهما بيومين رسالة

إنه رسالتها بلا شك ؛ وقالت للبواب

فجأة : « أصغ إلى ... إننى أمه ، وقد جئت أبحث عنه . هناك عشرة فرنكات لك ، وإن أتاك جديد عن « بوليه » أو جاءك عنه أى نبأ فانقله إلى فى فندق نورماندى بشارع الهافر ، وسوف أجزل لك العطاء »

وأجابها : اعتمدى على يا سيدتى .

وانطلقت ...

انطلقت « جان » لا تلوى على شىء ، ولا يعنيها أن تعرف أين وجهتها ، وكانت تسرع السير كأنها ، وفضة إلى أمر مهم ، وكانت تسير والجدران ، وكانت تصطدم بالمارة وما يحملون من لفائف . وفى عبورها للطريق لم تكن تلقى بالا إلى العربات ، فكان الحوذيون يوسعونها شتما . وكانت تعثر فى الأفاريز التى لم تكن تدير لها حسابا ، كانت تهيم وروحها أمامها هيمانة ..

ووجدت نفسها فجأة فى حديقة عامة ، ولقيت من تجوالها نصبا ، فاتكأت على أريكة ، وظلت غير قليل متكئة وهى مستغرقة فى البكاء ، غافلة عن نفسها لاهية عن المارة الذين كان يستوقفهم منظرها . ثم أحست وطأة البرد فنهضت لتعود إلى نزلها وحملتها ساقاها حملا ، فقد كان التعب والضعف يؤودانها

أرادت « جان » أن تعوج على أحد المطاعم لتنال بعض الحساء ولكنها لم تجسر على غشيان هذه الأماكن ، احتجزها ضرب من الخجل والإشفاق ، ولون من ألوان الاستحياء من الآلام التى تحس « جان » آثارها بادية على صفحتها . ووقفت هنيهة أمام باب المطعم تنظر إلى داخله ، وكانت ترى الناس جالسين يأكلون ، فقرت خاطفة وهى تقول : « سأدخل المطعم التالى » ولكنها لم تدخله أيضا

واشترت آخر الأمر من أحد الخبازين قطعة خبز قوراء كالقمر ، وأخذت تقضمها وهى سائرة . ولقد كان العطش يذلها ، ولكنها لم تكن تعرف من أين تشرب ، ولذلك مضت عطشى

واجتازت قبوة ، فوجدت نفسها فى حديقة أخرى تطيف بها مجموعة متتابعة من العقود ، أدركت « جان » أنها القصر الملكى ، وإذ كانت مرهقة من وهج الشمس وطول السير فقد لبثت جالسة ساعة أو ساعتين . ودخل الناس أرسالا ، وهم أناس يتسمون بأناقة المظهر ، يقبل بعضهم على بعض يتحدثون ويتبادلون التحايا ، فشهدت « جان » جما سعيدا نساؤه جميلات ورجاله أثرياء ، جما لا يعيش إلا للحلى والباهج . وتشفق « جان » من أن تكون بين هذا المشهد البراق ، فتنهض لتفر ، ولكن فكرة مفاجئة تساورها ، هى أن ولدها الأثير

« بول » لا يبعد أن تلقاه هنا ، لذلك أخذت تجوب المكان وهى تتصفح الوجوه ذهابا وجيئة فى غير توقف ، وتحر خطاها الكسيرة السريعة من أول الحديقة إلى آخرها

وكان بعض الناس يلتفتون وراءهم لينظروا إليها ، وكان آخرون يضحكون وهم يشيرون إليها ، ولاحظت هى ذلك فولت الأدبار معتقدة أنهم يتفكهون بمظهرها وبردائها ذى المربعات الخضراء الذى اختارته لها « روزالى » والذى خاطته خياطة « جودرفيل » وفق تعليمات « روزالى » أيضا

ولم تكن تجسر على أن تستهدى المارة الطريق ، فسارت تعتسفها اعتسافا ، وانتهت بأن وجدت فندقها . وأنفقت باقى يومها جالسة على مقعد بجوار سريرها ، ساكنة لا تبدى حراكا ، ثم تناولت عشاءها كما تناولته بالأمس : بعض الحساء وقليلا من اللحم ، ثم ثابت إلى النوم . كانت تفعل ذلك كله آليا وبالعادة

واعتدت فتوجهت إلى مخفر البوليس رجاوة أن يبحث لها المسؤولون عن ولدها ، ولكنهم لم يعنوها بشىء سوى أنهم سوف يهتمون بالأمر . ومن ثم ، جعلت تطوف بالشوارع ، والأمل فى أن تلقاه راودها دائما ،

وكانت تشعر أنها وسط هذا الزحام المائج أقسى وحشة وأشد ضيعة وأهول بؤسا مما لو كانت فى خلاء مقفر

وعندما ضرب الليل سرادقه ، وجان فى الفندق ، نبئت أن رجلا من لدن « السيد بول » سأل عنها ، وأنه سيعود إليها الغداة ، فتفزت موجة من الدم إلى قلبها ، ولم يطبق لها جفن طول الليل

— لو كان إياه ! لا بد أنه هو

هذا مع أنها لم تتعرف إلى صفات ولدها مما ذكر لها عن السائل

وحوالى الساعة التاسعة صباحا دق بابها فصاحت : « أدخل » ، وتراجعت لتحسن التقدم ، وفتحت ذراعيها ، ولكن المتقدم إليها كان شخصا لا تعرفه . وبينما كان يعتذر إليها عن إزعاجها ويشرح لها مقصده من الزيارة وهو مطالبتها بمبلغ فى ذمة « بول » ، استبقت بالدمع عينيها ، ولكنها كتمت بكاءها عن محدثها ، فقد كانت تمسح دموعها بطرف إصبعها كلما تجمعت فى زوايا مقلتيها

لقد علم الدائن من بواب شارع سوفاج بمجىء الأم ، فلما لم يستطع لقاء النائب قصد إليها ؛ ومد إليها يده بقرطاس تناولته وهى لا تفكر فى شىء ، وقرأت فى القرطاس رقما : (٩٠ فرنكا) فأخرجت

النقود وأدت الدين . ولم تبرح فندقها طول اليـوم

وفى الغداة ، تقدم دائنون آخرون ، فأعطتهم جان كل ما كان متبقيا لديها من نقود ولم تبق لنفسها غير عشرين فرنكا ، وكتبت إلى « روزالى » تستنبئها الحال

وقضت الأيام فى جوب الطرقات ، ترقب رد خادمتها ، غير عارفة ماذا تصنع ، ولا كيف تقتل الساعات الفاجعة التى لا تنتهى ، وغير عارفة أحدا تفضى إليـه بكلمة شافية ، أو أحدا يعرف شئونها ... كانت تسير إلى غير غاية ، وكانت فى كبد ، وكانت تنازعها نفسها إلى الرحيل والانقلاب إلى هنالك . . . إلى بيتها الصغير على جانب الطريق المنعزل . إنها قبل أيام قليلة لم تـكن تقوى على العيش فيه إذ كان الحزن يغلبها ، أما الآن فهى على النقيض تحس أنها لا تقوى على العيش إلا فيه ، حيث تمارس عاداتها الحزينة التى أخذت منها مأخذا عميقا

وتلقت ذات مساء كتابا منطويا على مائتى فرنك ، وفيه تقول لها « روزالى » : « سيدتى جان ، إرجعى بأسرع ماتستطيعين ، فليس بعد هذه المرة من نقود . فأما رأيى فى شأن « السيد بول » فسوف أذهب بنفسى للبحث عنه عندما ترد علينا أخبار ، ولك التحية من خادمتك (روزالى) »

وعادت « جان » ذات صباح إلى باتفيـل ، وكان الثلـج يـسقط والـبرد يقرس

* * *

وبتلك غرفته الأسى كانت (جان) تقضى أيامها . وكانت تتقدم إلى الشيخوخة ، وكانت تنتظر ، وعبثا ما كان انتظارها . وأنبأها أنها ذات يوم أن عشيقته قـد دنا منها حذوق من بين ظهرانيه ، بعد أن وضعت وليدة ، وأنه يعانى الإفلاس

* * *

تهاوت « جان » إلى مقعدها ، وهى لا تـكاد تقوى على دعاء «روزالى» . وما إن حضرت الخادم حتى أخذت المرأتان كلتاهما تقرآن الرسالة ، ثم بقيتا طويلا الواحدة فى مواجهة الأخرى والصمت يلفهما . وأخيرا قالت « روزالى » : سأذهب بنفسى لإحضار الطفلة ياسيدتى ، فما ينبغى أن ندعها هكذا . وأجابت « جان » : « إذهبى يا ابنتى »

وأغرقتا فى الصمت ، ثم قالت الخادم : «ضعى قبعتك ياسيدتى ، وهيا بنا إلى موثق العقود فى « جود رفيل » فلو كان هذا آخر عهد المشيقة بالدنيا لـكان لزاما على « السيد بول » أن يعقد عليها من أجل مستقبل الطفلة »

ووضعت « جان » قبعتها من غير أن تنبس ببنت شفة . وضعت قبعتها وقد فاضت على قلبها فرحة عميقة لا يجوز الجهر بها ، هي فرحة خبيثة ودت « جان » جاهدة إخفاءها تماما بأية وسيلة ، هي من الفرحات المرذولة التي تخجل صاحبها ، ولو أنه في حقيقة الأمر يلتذها التذاذا في أطواء نفسه : إن عشيقة « بول » مشفية على الهلاك !

وزود موثق العقود الخادم بتعاليم مفصلة ، وقد رددت «روزالي» هذه التعاليم أمام الموثق مرات عدة ، حتى إذا استوثقت من أنها لن تقع في أي خطأ قالت : « لا تخشي شيئا ، فالآن آخذ الأمر على عاتقي » . ثم مضت إلى باريس في الليلة نفسها

وقضت «جان» يومين مضطربة الفكر حتى لتعجز عن التفكير في شيء ، وفي الصباح الثالث من سفر « روزالي » تلقت منها كلمة واحدة تخبرها فيها بأمر واحد هو أنها عائدة بقطار المساء

وفي نحو الساعة الثالثة استقلت «جان» إلى المحطة عربة أحد جيرانها لتنتظر خادمها. وظلت واقفة على الرصيف ، وعينها معلقة بالخط المستقيم الذي رسمته القضبان ، وقد كانت هذه القضبان المتقاربة تلوح وكأنها تفر هاربة إلى الأفق . وبين لحظة وأخرى كانت « جان » تتلفت إلى ساعة المحطة ... لم يبق إلا عشر دقائق ، بقيت خمس دقائق ... دقيقتان ... ها قد حان الوقت ولما يظهر في الطريق الطويل شيء . ثم فجأة ، لاحظت نقطة بيضاء ، ثم لاحظت دخانا ، ثم من أسفله نقطة سوداء بدأت تكبر وتكبر راكضة بكل سرعة . وأخيرا خففت القاطرة من سرعتها ، ومرت وهي تلهث أمام « جان » التي كانت ترقب الأبواب في لهفة . وفتحت أبواب كثيرة ، وهبط منها الناس : فلاحون في قمصانهم ، وفلاحات يحملن السلال ، وقليل من أهل الطبقة الوسطى بقبعاتهم الناعمة . وأخيرا لمحت « جان » روزالي وهي تحمل على ذراعها شيئا من طرود الأغطية

وودت التقدم نحوها ، ولكنها خشيت أن تحر إلى الأرض فإن ساقيها كانتا واهنتين . ورأتها خادمتها فأقبلت عليها بروحها المعادة المعهودة وهي تقول : أسعد الله يومك يا سيدتي ! ها قد عدت أدراجي ولكن بعد مشقة

وسألت « جان » في تلهف : ما الأخبار؟ قالت « روزالي » : « خيرا ، لقد ماتت الليلة ، وقد تزوجا ، وها هي الطفلة » . وقدمت الطفلة التي لا ترى بين طيات ثيابها . وتناولت « جان » الطفلة آليا ،

وخرجت مع خادمتها ، واستقلتا المركبة

واسترسلت « روزالى » تقول :

« سيأتى السيد بول بعد الدفن غدا فى نفس الوقت على ما أعتقد » وتمتمت جان : « بول » ! ولم تزد شيئا »

كانت الشمس قد مالت نحو الأفق ، مفيضة النور على السهول السندسية التى يتخللها هنا وهناك زهور الكولزا بلونها الذهبى وزهور عرف الديك بلونها الدموى ، وكان الهدوء الشامل ينشر فسطاطه على الأرض الساكنة التى تنبت الزروع ، وكانت العربة تعدو ماوسعها العدو ، وكان سائقها القروى لا ينفك يحث الجواد على الإسراع

وكانت « جان » تنظر قدامها إلى الهواء ، وكانت تتلفت إلى السماء التى ترفرف تحت قبتها الزرقاء بعض الأطيار . وفجأة أحست الدفء يدب فيها ، وأحست حرارة الحياة تخترق ثيابها وتدرك ساقيها ، وتنفذ فى جسدها . إنها حرارة الكائن الصغير الهاجع على ركبتيها

هنالك غمرها شعور مائه شهامة ، وكشفت فجأة عن وجه الطفلة الذى لم تكن شهدته بعد ، وجه حفيدتها ؛ وكان للضوء القوى أثره على المخلوقة الضعيفة ففتحت عينيها الزرقاوين محركة فمها ، وأخذت « جان » تقبلها بحرارة شديدة ، رافعة إياها بين ذراعيها ، غامرة إياها بالقبل

ولكن « روزالى » وقفت سيدتها غير حافلة رضاها وسعادتها ، قائلة : « حسبك ، حسبك يا سيدتى جان ، حسبك فستجعلينها تبكى » ثم أضافت وهى تجيب على فكرة راودتها هى نفسها : « هذى هى الحياة ، إنها ليست خيرا ولا شرا مما نظن »

لبيب السعيد